

محاضرة

تزكية النفس

فضيلة الشيخ عبد الرزاق البدر

حفظه الله تعالى

النسخة الإلكترونية (٢)

الشيخ راجع التفريع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله
صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين..
أمّا بعد..

هذه -أيها الإخوة- وقفة مع قول الله ﷻ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّىٰ ۝١٤﴾ [الأعلى]، ففي هذه الآية بيان أن
من تزكى أفلح في دنياه وأخراه، والفلاح هو حيازة الخير في الدنيا والآخرة.
وهذه الآية نظيرها قول الله ﷻ في سورة الشمس مُقسِّمًا على ذلك بآياته العظام ومخلوقاته الجسام
﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ۝١ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَّهَا ۝٢ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّهَا ۝٣ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ۝٤ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ۝٥ وَالْأَرْضِ
وَمَا طَحَّهَا ۝٦ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا
۝١٠﴾ [الشمس]، فأقسم الله ﷻ بأكثر من عشر آيات عظيمة ومخلوقات جسيمة أن من زكى نفسه
أفلح ومن دساها خاب وخسر، ومعنى ﴿دَسَّاهَا﴾ أي غمرها وحقرها وطمرها بإيقاعها في الخسائس
وحقائر الذنوب والمعاصي والآثام.

فتزكية النفس أمر عظيم ينبغي على المسلم أن يعنى به عناية دقيقة.
وفي هذا الباب -أيها الإخوة- أشير على عجل إلى بعض القواعد والضوابط والأصول المهمة في
باب تزكية النفس أذكرها باختصار وبدون إطالة:

[القاعدة الأولى]

التزكية بيد الله ولن يتزكى إلا من زكاه الله

فالأمر لله من قبل ومن بعد، قال الله تعالى: ﴿بَلِ اللَّهِ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٩]، وقال جل وعلا:
﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنكُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾ [النور: ٢١]، وقال جل وعلا:
﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَبٌ إِلَيْكُمْ الْأَيْمَنَ وَزَيْنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرِهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّشِدُونَ
۝٧﴾ [الحجرات].

وهذا الأصل ينقلنا إلى أصل ثانٍ مرتبط به:

[القاعدة الثانية]

أهمية الدعاء في باب تزكية النفس

فإذا كانت التزكية بيد الله ولا متزكي إلا من زكاه الله فما أحوج العبد وأشد افتقاره إلى ربه ﷻ بأن يزكّيه، والدعاء - كما قيل - مفتاح كل خير في الدنيا والآخرة.

وفي هذا الباب ثبت في «صحيح مسلم» من حديث زيد بن أرقم أن النبي - عليه الصلاة والسلام - قال في دعائه: «اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا وَزَكَّاهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا، أَنْتَ وَلِيِّهَا وَمَوْلَاهَا».^(١)

[القاعدة الثالثة]

أساس تزكية النفوس وعماد بنائها توحيد الله ﷻ

فالتوحيد هو الأساس الذي تُبنى عليه التزكية والقاعدة التي عليه تقوم، وهو لشجرة التزكية بمثابة الأصول للأشجار كما قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾﴾ [إبراهيم]، فشجرة التزكية تقوم على التوحيد، وإذا انثلم التوحيد لا زكاة، كما أن الشجرة لا قيام لها بدون أصلها، ولهذا جاء عن عدد من المفسرين من الصحابة والتابعين في معنى قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴿٩﴾﴾ [الشمس]، وقوله: ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴿٧﴾﴾ [فصلت: ٧]، أي لا يقولون: لا إله إلا الله، أي: لا يُوحّدون الله، وذلك لأن توحيد الله ﷻ هو الأصل الذي تُبنى عليه التزكية، فإذا فقد التوحيد لا توجد زكاة في العبد، وأعماله كلّها تذهب هباءً منثورًا؛ لأن الشرك محبط للأعمال مبطل لها.

[القاعدة الرابعة]

القرآن الكريم هو منبع التزكية ومعينها الذي لا ينضب

وكلّما كان العبد مرتبطًا بهذا القرآن قراءة وتدبرًا وعملاً فاز من التزكية بأعظم نصيب.

ولهذا قال الله ﷻ: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيزَكِّيهِمْ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران: ١٦٤] فتلاوة آيات الله - جلّ وعلا - على الناس تُزكّي النفوس، فالقرآن هو كتاب التزكية ومنبعها، وكلّما كان العبد قريبًا من هذا القرآن حاز من التزكية بحسب قربه من كتاب الله.

(١) في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب التَّوَهُّدِ مِنْ شَرِّ مَا عُمِلَ وَمِنْ شَرِّ (ح ٢٧٢٢).

[القاعدة الخامسة]

لا زكاة للعبد إلا باتباع الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ

وأمر تزكية النفس مسلّم للرسل عليهم صلوات الله وسلامه، فهم أئمة المتزكّين وقدوة عباد الله، قد قال الله ﷻ في شأن إمام المرسلين وخاتمهم وسيّد ولد آدم أجمعين - صلوات الله وسلامه عليه -:

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب].

وفي هذا الباب أقول: كيف يُرام الوصول إلى التزكية والقبول بغير اتباع الرسول ﷺ؟! هذا مُحال، كيف يطلب الإنسان لنفسه تزكية دون أن يتبع النبي - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -، وقد أعطانا ﷺ في هذا الباب قاعدة جامعة وضابطا نافعا فقال: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»^(١)، وقال: «فَإِنَّ كُلَّ مُحَدَّثَةٍ بَدْعَةٌ، وَكُلُّ بَدْعَةٍ ضَلَالَةٌ وَكُلُّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ»^(٢).

وهذا ينقلنا إلى:

[القاعدة السادسة]

الطرائق التي يحدثها الناس ويزعمون أنها تزكّي النفوس فهي في الحقيقة لا تحقّق لهم تزكية

بل لا تزيدهم عن التزكية إلا بُعدًا، فالطرائق المُحدثة، وكثيرًا ما تُخترع عبر التاريخ بدع وأهواء يدّعي أربابها ومحدثوها أنها تزكّي النفوس، وأن النفوس إنّما تزكو بها.

فهذا يدعو إلى خلوة في مكان مظلم ينقطع فيه الإنسان عن الجُمع والجماعات والعلم والتّعلم ويردد كلمات تُملئ عليهم؛ بل أحيانا كلامًا لا معنى له يردّده أيامًا طويلة، ويزعمون أنه بمثل هذه الخرافات والضّلالات يُزكّي نفسه، ولقد تلاعب الشّيطان بأقوام في هذا الباب تلاعبًا عجيبًا.

قد فصلّ في هذا الباب تفصيلا واسعا ابن الجوزي في «تلبس إبليس» وذكر في هذا الباب عجائب وغرائب من تلبس إبليس على الصّوفية، وكيف أنه أدخلهم في منزلقات خطيرة جدًّا من باب تزكية النفوس، وهي أعمال لا تزيد فاعلها عن تزكية النفس إلا بُعدًا.

(١) ذكره البخاري (كتاب البيوع، باب النجش) تعليقا، و وصله في كتاب الصلح (ح ٢٦٩٧).

(٢) أخرجه النسائي (ح ١٥٧٨)، وصححه الشيخ الألباني رحمه الله في الإرواء (ح ٦٠٨)..

[القاعدة السابعة]

أهمّية الوسطية والاعتدال في باب التزكية

كما قال الله ﷻ: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة: ١٤٣].

وخيار الأمور أوسطها لا تفریطها ولا إفراطها فالوسطية في هذا الباب وفي كل باب مطلوبة ولا بد منها، فإذا دخل الإنسان في أبواب العبادات ليزكي نفسه، في باب الأخلاق، ليزكي نفسه عليه أن يكون في ذلك وسطا، والوسطية تعني لزوم الحق؛ بل يجمع الوسطية قول النبي -عليه الصلاة والسلام-: «سَدُّوا وَقَارِبُوا وَأَبْشُرُوا»^(١) وخذ مثالا لذلك يوضحه ويقربه: رمي السهم إلى المرمى. ما هو السداد في رمي السهم إلى المرمى؟ أن يصيب المرمى بعينه، والمقاربة أن يرمي السهم إلى جهة المرمى فيكون قريباً منه؛ لكن من لا يأخذ السهم أصلا ولا يرميه، أو يأخذ السهم ويعطي المرمى ظهره ويرمي إلى جهة أخرى، هل هؤلاء أهل سداد أو أهل مقاربة؟ لا، فأهل السداد والمقاربة الذين يصيبون السنة أو الذي يعمل جاهدا ليصيب السنة فيكون قريبا منها، ولكل منهما بشارة قال: «سَدُّوا وَقَارِبُوا وَأَبْشُرُوا»، فأهل السداد لهم بشارة، وأهل المقاربة أيضا لهم بشارة.

أما الذي يدير للسنة ظهره ولا يرفع بالسنة رأسا ولا يبالي بها؛ بل يتبع هواه ويتعد عن سنة النبي ﷺ وهُداة، فهذا ما أبعد عن الوسطية، فالتزكية وسطية واعتدال.

[القاعدة الثامنة]

التزكية تخلية وتحلية ولا يكون العبد متزكيا إلا بهما

ومن يرجع إلى أصل مدلول هذه الكلمة في اللغة، وكذلك معناها في الشرع في ضوء دلالات النصوص يدرك ذلك.

فالتزكية تخلية وتحلية للنفس من الرذائل، وتحلية لها بالخيرات والفضائل، هذه التزكية. وأصل معناها في اللغة: النماء والطهارة، النماء أي الزيادة في الخيرات، والطهارة أي: التخلي من الآفات والسيئات والمنكرات.

يدل على أن التزكية تحلية بالفضائل الآية التي بدأنا بها وهي قول الله ﷻ: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ﴾ وذكر

(١) أخرجه البخاري (ح ٦٤٦٤)، ومسلم (٢٨١٨) من حديث عائشة رضي الله عنها.

أَسْمَرَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴿١٥﴾ [الأعلى] فالذكر والصلاة وعموم الطاعات تُزَكِّي النفوس، كل طاعة يتقرب بها العبد إلى الله ﷻ فهي تزكية لنفسه، ويدل على أن التخلي عن المنكرات والبعد عنها داخل في باب التزكية قول الله تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [النور] فبعد الإنسان عن ما نهاه الله عنه هذا داخل في باب تزكية النفس، ولهذا قال الله ﷻ: ﴿ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ .

أختم بـ:

[القاعدة التاسعة]

أهمّية تذكّر اليوم الآخر وأن يكون نصب عيني الإنسان

كلّما كان العبد على ذكر لهذا اليوم يوم الحساب، يوم الوقوف بين يدي الله -تبارك وتعالى- أعانه ذلك على تزكية نفسه، قد مر معنا فيما سمعناه من آيات قول الله ﷻ عمّن يؤتوّن كتبهم باليمين: ﴿إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلْكٌ حِسَابِيَّةٌ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴿٢١﴾﴾ [الحاقة] فكلمّا كان العبد مستصحبا لهذا الظن المبارك والاعتقاد العظيم وأنه سيحاسب وأنه سيلاقي الحساب من سيقف بين يدي الله -جلّ وعلا-، وأن الله سيحاسبه على أعماله التي قدن في هذه الحياة كلّما أراد أن يخطو خطوة لعمل لا يرضي الله تذكّر أنّ الله سيحاسبه على هذا العمل، وأنه سيقف أمام الله -جلّ وعلا- ويُجزى بما قدّم، فيمنعه ذلك ويحجزه بإذن الله -تبارك وتعالى- عن الرذائل ويسوقه إلى الفضائل.

ولهذا قال الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَانْتَظِرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر: ١٨] وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُورًا أَنفُسِكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَّا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [التحریم] ، ومن أواخر ما نزل على نبينا ﷺ بل قيل: هو آخر ما نزل قول الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة] فإذا كان العبد على ذكر لهذا اليوم وهذا القيام بين يدي الله ﷻ فإن هذا بإذن الله ﷻ يحفّزه إلى التحلي بالفضائل والتخلي عن الرذائل وهذه هي حقيقة التزكية.

اللهم آت نفوسنا أجمعين تقواها، وزكّها أنت خير من زكّاهاK أنت وليها ومولاها.

والله أعلمK وصلّى الله وسلم على رسول الله .

